خمسون عاماً على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون (١ من ٧)

المذبحة وقعت بعد يوم من معركة القسطل

وليد الخالدي *

■ في مثل هذا التاريخ، ٩ نيسان (ابريل)، منذ خمسين عاماً، وكان يوم جمعة، وقبل أن ينبلج فجره، انقضّت فجأة، وبمعرفة قيادة الهاغانا، التابعة للوكالة اليهودية، قوات منظمتي الشتيرن (بالعبرية ليحي) والارغون (ايتل) الارهابيتين على قرية دير ياسين في ضواحي القدس الغربية، على بعد أقل من خمسة كيلومترات من مقر حكومة الانتداب البريطانية السياسي والعسكري في عاصمة فلسطين، وما ان غربت شمس ذلك اليوم، بعد قتال عنيف دام أكثر من ١٢ ساعة، اشتركت فيه الى جانب المهاجمين وحدات من قوات البالماخ الضاربة التابعة للهاغانا، حتى تم للمعتدين ما عقدوا النية عليه واحتلت القرية واستشهد من سكانها (البالغ عددهم حوالى ٧٥٠ نسمة) ١٥٠ شخصاً معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال وهُجّر الناجون كافة ليدخلوا شتاتاً لا نهاية له يحملون فيه الى يوم الدين جراحاً نفسية لا تندمل لفقدان جدّ أو أب أو أخ أو أمّ أو بنت أو حفيد أو بعضهم أو جلهم خلال ساعات وغدا اسم دير ياسين عبر الآفاق والعقود رمزاً لافلاس بريطانيا العظمى المعنوي في فلسطين ولدموية الصهيونية وبربريتها.

لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية عام ١٩٤٨ تعتدي عليها القوات الصهيونية نسفاً وقتلاً فقد سبقتها بالتسلسل الزمني كل من الطيرة (قضاء حيفا) والخصاص (صفد) وقزازة (الرملة) وبلد الشيخ وأبو شوشة وشفا عمرو (حيفا) وتمرا (الناصرة) وعرب صُقرير (غزة) وسعسع (صفد) وبيار عدس وابو كبير (يافا) والحسينية (صفد)، ولم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تحتلها القوات الصهيونية عام ١٩٤٨ وتطرد سكانها منها بعد أن استشهد منهم من استشهد فقد سبقتها كل من خُلدة ودير مُحَيْسين (الرملة) ولفتا والقسطل (القدس)، كذلك لم تكن دير ياسين آخر قرية فلسطينية عام ١٩٤٨ يصيبها ما أصابها من قتل ونسف وتهجير واحتلال فقد تبعها خلال العام ذاته ٤٥٠ قرية دُرست معالمها ومنازلها درساً ووزعت أراضيها ومزارعها نهباً حراماً على سكان مستعمرات يهودية انشأت على انقاضها فلماذا اكتسبت دير ياسين من دون غيرها من قرى فلسطين المذكورة هذه «المكانة» ولماذا نحي اليوم ذكرى دير ياسين بالذات في السنة الخمسين على سقوط سائر القرى؟

الاجوبة متعددة أهمها الآتي: أولاً: تميزت دير ياسين عن معظم شقيقاتها بقربها من عاصمة البلاد مما مكن الاطلاع على ما جرى فيها بتفاصيله فقد دخل القرية ممثل الصليب الأحمر الدولي المقيم بالقدس صباح يوم الأحد في ١١ نيسان (ابريل) لينقل الى العالم الخارجي ما شاهده قبل أن ينجح المعتدون في إخفاء معالم جريمتهم، كما ان المعتدين أنفسهم مساء يوم الجمعة ذاته في ٩ ابريل نقلوا حوالى ١٥٠ من «أسراهم» من الشيوخ والأطفال والنساء في شاحنات وطافوا بهم في موكب نصر (كما سيرد لاحقاً) في الاحياء اليهودية قبل قذفهم على حدود الاحياء العربية ليرووا على السلطات الحكومية والفلسطينية المركزية وعلى ممثلي الصحافة العربية والدولية معاناتهم الفردية والعائلية.

ثانياً: عقد قادة المنظمتين الارهابيتين الشتيرون والارغون بالقدس في الساعة السابعة من مساء يوم الجمعة ٩ ابريل ذاته مؤتمراً صحافياً دعوا اليه ممثلي الصحف والاذاعات الأميركية من دون غيرهم تباهوا فيه بنصرهم العسكري وبأنهم قاموا باحتلال «أول» قرية فلسطينية كما تباهوا باشتراك قوات البالماخ في الهجوم ما احرج الوكالة اليهودية كل الاحراج وذكروا كذباً أنهم قضوا على ٢٤٥ عربياً وهو رقم تناقلته الاذاعات الحكومية وكذلك محطات الاذاعة في العواصم العربية وفي العالم بما في ذلك محطة اذاعة البي. بي. سي. اللندنية.

ثالثاً: اضطرت الوكالة اليهودية في اثر ضجة الاستنكار العالمية التي قامت الى تكذيب اشتراك قواتها أي قوات البالماخ في الهجوم، وهو ما حدث فعلاً كما أسلفنا، كما اضطرت الى توجيه برقية اعتذار الى الملك عبدالله اعقبتها برقية اعتذار شخصية اليه من بن غوريون وتصاريح تشجب أفعال «المتشقين» (أي عصابتي الشتيرن والارغون) من قبل كبار الحاخاميين مما ركز الأنظار على هول ما حدث ودخلت القيادة العمالية السياسية اليهودية منذئذ في جدل عنيف مع قيادة المنظمتين الارهابيتين وخليفتهما حزب الليكود اليميني لم ينته الى يومنا هذا عن دور كل طرف في الهجوم على دير ياسين وعن اثر ما قامت به المنظمتان فيها يوم ٩ ابريل على مجمل سير الأحداث عام ١٩٤٨ وعما تسميه القيادة العمالية تدليساً «بطهارة السلاح العبري».

هذه أهم أسباب تسليط الأضواء على دير ياسين تاريخياً حيث ان قوات الوكالة اليهودية (الهاغانا والبالماخ) قضت على مئات القرى التي ذكرنا بصمت بعيداً عن الضجيج الإعلامي والرقابة الصحافية، وهو صمت لم يشوبه سوى دويّ الانفجارات وانين الضحايا الأبرياء، بيد أن لدير ياسين أبعاداً أخرى، في نظرنا، فهي مثال صارخ لرياء القيادة الصهيونية السياسية والعسكرية عن «طهارة» سلاح دنّسته في دير ياسين وخارجها وقبل دير ياسين وبعدها، وما حصل في دير ياسين في ذلك اليوم إن هو إلا اختزال لمجمل ما حصل في سائر القرى الـ ٤٥٠ الشهيدة، ودير ياسين انما هي نموذج للتماس بين منظمات دولية يهودية ذات طاقات مادية وبشرية ضخمة تدعمها دول الغرب الكبرى، وبين أرباب عائلات قروية متواضعة يدافعون عن عقر الدار وعتبته، وعن الأم، والزوجة، والبنين، والاحفاد، ودير ياسين الى هذا وذاك غدت رمزاً لتقصير القيادات الفلسطينية والعربية الفادح الفاضح لسماحها للعدو باستفراد قرى فلسطين قرية قرية ومدنها مدينة مدينة سماحاً لا عذر له ولا غفران.

وبعد فإذا اكتسبت دير ياسين لوحدها من قرى فلسطين هذه الرمزية كضحية على غرار ما يحدث كثيراً في الحروب والثورات لواقعة معينة كما اكتسبت ذلك مثلاً واقعة جاليان ولاّ Jallianwalla في الهند (١٩١٩) أو غويرنيكا Guernica في الحرب الأهلية الاسبانية أو كوفنتري Coventry في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية أو شارب فيل Sharpeville (١٩٦٠) في جنوب افريقيا أو «الأحد الدموي» Bloody Sunday (١٩٧٢) في ايرلندا الشمالية، فقد حان الوقت ان تكتسب دير ياسين أيضاً رمزيتها عن جدارة وحق كمقاومة بطلة، ذلك أنه رغم عنصر المفاجأة وعدم وصول أي نجدات اليها قاوم أهالي دير ياسين بامكاناتهم المحدودة جداً نسبياً القوى المهاجمة مقاومة بطولية رائعة اضطرت المنظمتين الارهابيتين للاستنجاد بقوات البالماخ لاخراجها من ورطتها العسكرية كما سنبين لاحقاً.

طبعاً لم تنفرد دير ياسين من بين قرى فلسطين بروعة صمودها ومقاومتها فقد شاركها في ذلك العديد من القرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر إجزم وجَبَع وعين غزال (حيفا) وسلمه والعباسية، وابو كبير وتل الريش، ويازور (يافا) وخُلدة ودير محيسن (الرملة) والواقع انه لو قاومت معظم سائر القرى كما قاومت دير ياسين وشقيقاتها لكان اختلف الوضع عما انتهى اليه في ريف فلسطين، لذلك وجب علينا أن ننحي احتراماً في هذا اليوم ٩ ابريل ١٩٩٨ لشهداء دير ياسين ونحن بذلك انما ننحني احتراماً لسائر شهداء البلاد أجمعين.

دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون

كانت دير ياسين تقع على المنحدرات الشرقية لتل يبلغ علو قمته ٨٠٠ متر وكانت تواجه الضواحي الغربية اليهودية للقدس التي كانت أقربها (غيفعات شاؤول) تبعد عنها حوالى ١٢٠٠ متر، وتألفت هذه الضواحي من (ست مستعمرات هي من الشمال الى الجنوب: غيفعات شاؤول، منتيفيوري، بيت هاكيريم، شكونات هابوعاليم يافه نوف، وبيت فيجان شكلت سداً منيعاً بين دير ياسين والقدس، وأشرفت دير ياسين على مشهد واسع من كل الجهات، وفصل بينها وبين المستعمرات اليهودية واد ذو مصطبات غرست فيها أشجار اللوز والتين والزيتون وكروم العنب.

وارتبطت دير ياسين بالعالم الخارجي عن طريق ترابي واحد تسلكه السيارات شمال الوادي يمر عبر غيفعات شاؤول ومنها الى القدس وغيرها، وكانت أقرب القرى العربية اليها قرية عين كارم الواقعة على بعد حوالى كيلومترين الى الجنوب الغربي منها والدرب بينهما صعب وعر.

وليست كلمة «دير» بغريبة عن قرى فلسطين أو جوار القدس وكان ثمة في الطرف الجنوبي الغربي للقرية طلل كبير يطلق عليه اسم «الدير» فقط، أما الشيخ ياسين الذي تنتسب اليه القرية، فلا نعلم الكثير عنه، بيد انه كان في القرية جامع يعرف باسمه يضم ضريحه ومقامه ومضافةً وساحة تقام فيها حفلات الأعراس وليالي السمر.

وبلغت مساحة أراضي دير ياسين ٢٧٠٠ دونم كان أكثر من نصفها مزروعاً عام ١٩٤٨ وكانت هذه الأراضي غنية بالحجر الكلسي المفضّل للبناء، وهكذا بازدهار حركة البناء في القدس ابان الانتداب ازدهرت صناعة قلع الحجارة وصقلها وتكسيرها في دير ياسين فانتشرت على جانبي الطريق الموصل الى جنعات شاؤول المحاجر والكسارات وانتقل اقتصاد دير ياسين في أكثره من الزراعة وتربية المواشي الى هذه الصناعة.

ورافق هذا التحول نهضة اجتماعية ثقافية في القرية رعاها الشيخ محمود صلاح (١٨٨٧ - ١٩٤٢) وهو من ابنائها الميسورين الذي شيد جامعاً باسمه في أعالي القرية الغربية. وفي عام ١٩٤٣ تم بناء مدرسة ابتدائية للبنين وتبرع أهل القرية بالأرض وثمن الحجارة وضموا اليها ملعباً لكرة القدم. وفي عام ١٩٤٦ افتتحت مدرسة للبنات في جامع الشيخ ياسين وتأسس ناد اجتماعي «نادي النهضة»، وتألفت في دير ياسين «لجنة اصلاح» قوامها الحاج أسعد رضوان والحاج جابر وحسين زيدان اضافة الى الشيخ محمود صلاح أشرفت على صناديق توفير واقراض وحدتت المهر لتوفير فرص متكافئة في الزواج بين الغني والفقير اذ اشتهرت دير ياسين في القرى المجاورة بـ «الجيزة الياسينية».

وفي عام ١٩٣٥ اشتركت دير ياسين مع جارتها العربية لفتا (غيفعات شاؤول) في تأسيس شركة باصات باسم «شركة باصات لفتا ودير ياسين» وكان الباص يصل من القدس ثلاث مرات بانتظام يومياً كما كانت تصل معه الصحف اليومية. وعلى رغم قربها من القدس لم تمد الحكومة البريطانية دير ياسين بالكهرباء أو الماء خلافاً طبعاً للمستعمرات المجاورة ومع ذلك كان في القرية اجهزة راديو تعمل على بطاريات السيارات كما كان فيها جهاز تلفون واحد في كسارة الحاج أسعد رضوان عند أول الطريق الترابي بالقرب من جفعات شاؤول، هذا وكان في القرية أيضاً فرن وثلاثة دكاكين.

بازدهار دير ياسين زاد عدد سكانها من ٤٢٨ نسمة عام ١٩٣١ الى ٧٥٠ عام ١٩٤٨ وارتفع عدد منازلها في الفترة ذاتها من ٩١ منزلاً الى ١٤٤ منزلاً وتنوعت المهن التي عمل أهلها فيها فمنهم معلمون في مدارس قروية، وكتبة في الدوائر الحكومية ونجارون وسائقو شاحنات وندل في معسكرات الجيش البريطاني واشتهر بعض الأهالي بالتجبير.

وتألف أهالي دير ياسين من ثلاث حمائل رئيسية هي: حمولة دار عقل وحمولة دار شحادة وحمولة دار حميدة وتفرعت عن الأولى عائلات: زهران ورضوان وعطية. وعن الثانية: زيدان وخليل وسمور وعيد وجابر. وعن الثالثة: حامد وعليا. واتسمت العلاقة بين الحمائل والعائلات بتماسك ووئام غير مألوفين، الأمر الذي تجسد بوجود مختار واحد للقرية على التوالي منذ نهاية القرن التاسع عشر. وكان آخر مختار لدير ياسين محمد اسماعيل سمور الذي تولى منصبه عام ١٩٢٥ واستمر فيه لغاية ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٨.

وانتشرت معظم منازل القرية كما يلاحظ من الخريطة باتجاه الغرب على منحدرات تلها فوق الوادي الفاصل بينها وبين المستعمرات اليهودية المقابلة وامتدت طريق ترابية من الجنوب الى الشمال بمحاذاة أعلى الوادي من مقبرة القرية وأمام واجهات المنازل لتلتقي عند زاوية قائمة Right Angle بالطريق الموصلة شرقاً بجعفات شاؤول والقدس، وتوزعت المنازل في هذا القسم الرئيسي الغربي من القرية حول قلبها المعروف بـ «الحارة» وهي أقدم أحياء القرية وأشدها اكتظاظاً ثم اخذت تنتشر صعوداً والى الغرب الى ان تصل الى أعلى منزل فيها وهو منزل الشيخ محمود صلاح (رقم ١٤٤)، أما سائر منازل القرية فانتشرت في القسم «الشرقي» منها بمحاذاة الطرف المقابل للطريق الجنوبية الشمالية التي ذكرناها ابتداء من جامع الشيخ ياسين (٤٤) لغاية الزاوية القائمة حيث توزعت شرقاً على جانبي الطريق الموصل الى المحاجر وجفعات شاؤول وكانت جميع المنازل من الحجارة متينة البنيان غليظة الحيطان كما يجدر بقوم صناعتهم قلع الحجارة وصقلها. ويذكر ان عائلات القرية حرصت على بناء منازل أفرادها بالقرب من بعضهم بعضاً. وهكذا ففي الناحية الشرقية مثلاً كانت المنازل ١٩ - ٢٢ تخص آل زهران و٢٥ - ٣٠ آل سمور وفي «الحارة» كانت المنازل ٦١ - ٦٣ و٦٨ - ٧١ تخص آل عيد و٦٥ - ٦٧ آل عطية بينما في الناحية الغربية العليا كانت المنازل ١٢٢ - ١٢٩ تخص آل زيدان وهكذا.

ومرت العلاقة بين دير ياسين وجيرانها اليهود في مراحل مختلفة شأنها في ذلك شأن سائر البلاد، بدأ بعلاقات حسن جوار أيام العثمانيين ما لبثت ان اتسمت بتأزم متزايد بنمو الاطماع الصهيونية في إثر الانتداب البريطاني، ثم تحولت الى عداء مستحكم انفجر في الثورة الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩، وتميزت الاربعينات بركود نسبي في العلاقات العربية - اليهودية في فلسطين بسبب الحرب العالمية الثانية والصدام الصهيوني - البريطاني الذي أعقبها، ونمت خلال هذه الفترة العلاقات الاقتصادية بين دير ياسين وأطراف يهودية محورها نتاج محاجر القرية كما فرضت سيطرة اليهود على الطريق الوحيدة الموصلة بين دير ياسين والخارج نوعاً من التعايش بين الطرفين، وفي اعقاب قرار التقسيم الصادر عن هيئة الامم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ وانفجار القتال في فلسطين المجاورة يتصاعد في ضوء الصدامات العنيفة بين العرب واليهود داخل القدس وفي الريف المحيط بها.

واقترب الخطر من دير ياسين ذاتها أكثر فأكثر عندما شنت القوات الصهيونية غارات متواصلة خلال كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ وكانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ على جارتها العربية الى الشمال - لفتا (شريكتها في شركة الباصات) وعلى حيين عربيين في الطرف الآخر من جيفعات شاؤول باتجاه القدس هما الشيخ بدر وروميما وارغم أهاليهما جميعاً على هجرة منازلهم بعد نسف العديد منها وكان لسقوط لفتا والحيين الأخيرين أثر كبير في نفوس سكان دير ياسين لقرب هذه المواقع منها ولكون لفتا تكبرها بسكانها بخمسة اضعاف. بيد ان أخطر العواقب المباشرة على دير ياسين نتيجة هذه التطورات، كان اغلاق الطريق الرئيسي الى القدس عبر جيفعات شاؤول مما عزلها عن المدينة، فلم يبق وسيلة للاتصال بالعاصمة إلا سيراً على الأقدام لمسافة ١٢ كيلومتراً عبر قريتي عين كارم والمالحة جنوب غربي القدس وهي رحلة استغرقت حوالى خمس ساعات بينما الوصول اليها بالباص كان يتم في خمس دقائق.

وفي أثر هذه الاحداث تألفت في القرية لجنة طوارئ من سبعة أشخاص تمثل حمائلها الثلاث: عقل وشحاده وحميده قوامها الحاج اسعد رضوان وابنه احمد اسعد ومحمد زهران (عقل) ومحمد زيدان وحسين زيدان والحاج جابر (شحاده) ويوسف أحمد عليا (حميده). وقررت اللجنة سياسة الاعتماد على النفس وتنظيم الدفاع عن القرية، كما قررت سياسة عدم التحرش بالعدو بهدف عدم اعطائه الذريعة للهجوم عليها وشملت تدابير الدفاع عن القرية ايفاد وفد الى مصر لشراء السلاح من الصحراء الغربية من مخلفات معارك الحرب العالمية الثانية وتدريب الشبان على السلاح واقامة استحكامات في المواقع الستراتيجية في القرية ونظام حراسة ليلية وتفتيش على الحرّاس.

وكان من أهم قراراتها هذه حفر خندق يقطع الطريق الرئيسية الموصلة الى جيفعات شاؤول لعرقلة تقدم المصفحات اليهودية، وأحكم اختيار موقع الخندق بين محجرين على جانبي الطريق على بعد حوالى ٥٠٠ متر من الزاوية القائمة عند التقاء هذه الطريق بالطريق الجنوبية/ الشمالية التي كانت تمر أمام الحارة كما اسلفنا (راجع الخريطة). ويروي خليل سمور (ابن المختار محمد سمور) وأحد مقاتلي القرية الأشداء وكان يعمل نادلاً في معسكر بريطاني ان عمق الخندق كان مترين كذلك عرضه، كما يروي محفوظ سمور المدرّس في مدرسة ابتدائية في قرية رمون (١٢ كم شرق رام الله) الذي وصل الى دير ياسين عبر عين كارم مساء يوم الأربعاء ٧ نيسان (ابريل) ليزور والديه وليعطيهما المعاش الذي قبضه عن شهر آذار (مارس) ان الخندق موّه بأغصان تعلوها طبقة ترابية، وقام علي قاسم حميدة الذي كان اشترك في ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ بتدريب الشباب على استعمال السلاح.

وبالفعل ذهب الوفد الى مصر ويروي أحد اعضائه حسين عطيه انه حمل معه ١٠٠٠ جنيه فلسطيني (أي استرليني) واتصل بالسماسرة الذين أخذوه الى بلدة المنصورة حيث اشترى عشرة بنادق مع ذخيرتها لكن المخابرات المصرية اعتقلته وصادرت السلاح والذخيرة منه بيد انها ما لبثت ان أفرجت عنه بعد اتصالات مع قيادة الجيش المصري وتولي الجيش المصري نقل السلاح الى بلدة رفح على حدود فلسطين وسُلّم اليه فوضعه في صناديق في سيارة شحن تحمل خضاراً الى القدس ومنها الى عين كارم ومن عين كارم على الدواب الى دير ياسين حيث وصلت يوم الأحد ٤ نيسان (ابريل). ويروى خليل سمور ان سعر البندقية الواحدة وصل الى ٥٥ جنيهاً وهو الراتب الشهري لكبار موظفي حكومة الانتداب العرب بينما بلغ سعر المخزن الواحد للبندقية (خمس طلقات) خمسين قرشا وهي أجرة يوم كامل للعامل العربي العادي وكانت نساء القرية تبرعن بحليهن لشراء السلاح.

وفي ٢٢ آذار (مارس) تقدمت مجموعة يهودية مسلحة نحو

البقية في ص ١٩